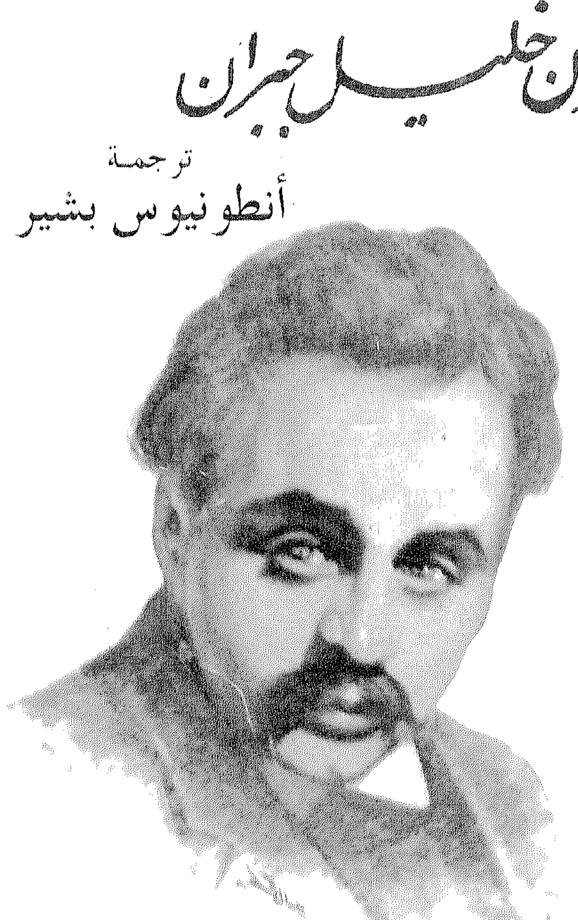
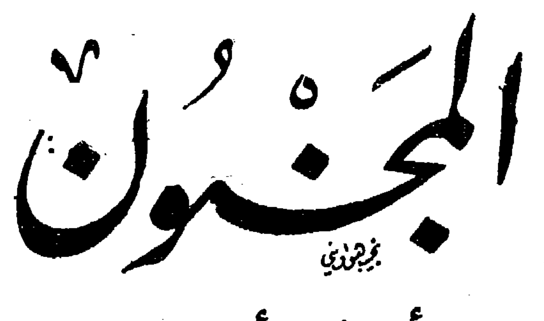
المجنون

لجبران خليل جبران

ترجمة
أنطونيوس بشير



التر جمة العربية الوحيدة
التى أقرها جبران



أمثاله وأشعاره

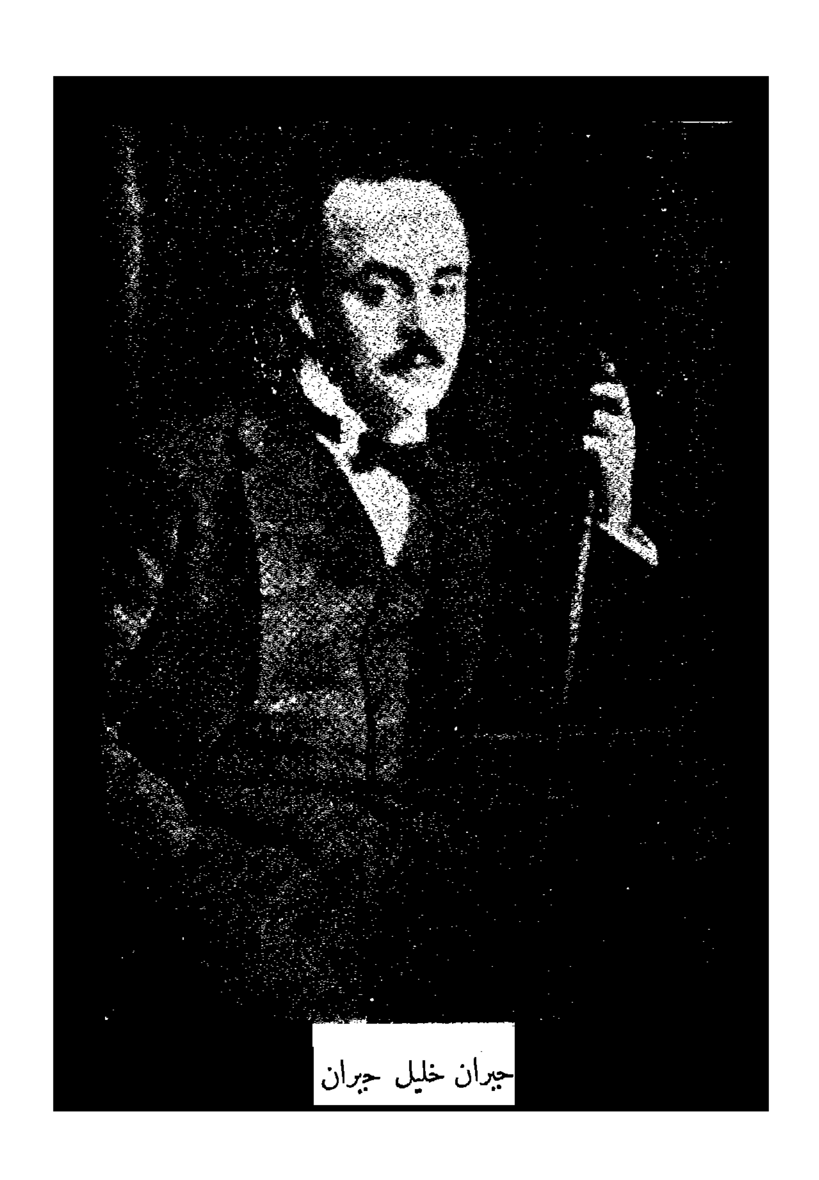
جبران خليل جبران

ترجمة

أنطونيوس بشير

[الترجمة العربية الوحيدة التى أقرها جبران]

دار العرب للبستاني



جبران خليل جبران

كلمة الناشر

بين يدى القارئ الكريم أحسن ما سطره جبران خليل جبران بدم قلبه ، فهو القائل : « ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب » .

كان جبران يراسل والدى الشيخ يوسف البستانى فى العشرينات ، ولم يكن جبران فى ذلك الوقت قد ذاع صيته وانتشر نتاج فكره فى العالم العربى .

ولكن القلم العربى الذى لا يلحن ولا ينقل الفكر الإنجليزى المكتوب إلى ترجمة عربية فحسب ، وجد سبيله عند جبران فى شخص صديقه الأرشمندريت أنطونيوس بشير الذى عاش فى أمريكا أيضا مهاجرا ، لهذا رأينا جبران يكلف بشيرا بترجمة « النبى » إلى العربية ، ومن ثم ولدت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٦ ، ثم تبع ذلك كتاب « كلمات » ، و « رمل وزبد » ، و « دمعة وابتسامة » ، و « البدائع والطرائف » ، و « المجنون » ، و « يسوع ابن الإنسان » وغير ذلك مما نسجه جبران بريشته .

وقد كان الغش التجارى سمة من سمات الناشرين والمترجمين فى العالم العربى ، فظهرت طبعات مزورة لا تشير إلى الناشر الأول أو المترجم مستكفية بصورة جبران وتأليف جبران خليل جبران . وظهر مترجمون آخرون وفقهم الله فى مسعاهم وجهدهم فى سبيل ترجمة أفكار جبران ،

ولكن بقى شيء واحد – لا شك فيه – وهو أن هذه الترجمة للنبى هى الوحيدة التى أقرها جبران وراجعها وبعث بها إلى والدى فى العشرينيات، وكان والدى فى ذلك الوقت يملك متجرا فى درب الجماميز (١) ثلاثة أمتار فى متر واحد !! ولم يطمع جبران فى مال يغرفه من أبى ، بل اكتفى ببعض النسخ لتوزيعها على أصدقائه فى المهجر .

هذه هى قصة هذه الطبعة ! بقى أن يعرف القارئ كيف أرادت الصهيونية العالمية تهويد جبران خليل جبران ونقله عن عقيدته وعروبته ... هذا ما كشف عنه المترجم الأول والوحيد لجبران فى الفصل الأخير من الكتاب ...

لقد عاش جبران عربيا ومات عربيا ... لقد خدم جبران أهله وعشيرته فى نقل أفكاره إلى لغات العالم . لقد ضغط جبران روحه وهو يقول : « ليس فكرا أخلقه ورائى ، بل قلبا جمَّلته مجاعتى وجعله عطشى رقيقا خفوقا » . ثم يسترسل فيقول : « كانت أيام كآبتى طويلة ضمن جدران هذه المدينة ... وأطول منها كانت ليالى وحدتى وانفرادى ، ومن ذا يستطيع أن ينفصل عن كآبته ووحدته من غير أن يتألم فى قلبه ؟ » .

صلاح الدين البستانى

القاهرة فى أول يناير ١٩٨٥

---

(١) أحد أحياء القاهرة القديمة المجاور للأزهر الشريف .

كيف صرتُ مجنونا

هذه قصتي إلى كل من يودّ أن يعرف كيف صرتُ مجنوناً : في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضتُ من نومٍ عميق فوجدتُ أن جميع براقعي قد سُرِقَتْ ، ــ البراقع السبعة التي حبكتُها وتقنعتُ بها في حيواتي السبع على الأرض . ــ فركضتُ سافر الوجه في الشوارع المزدحمة صارخاً بالناس ، « اللصوص ! اللصوص ! اللصوص الملاعين ! » فضحك الرجال والنساءُ مني وهربَ بعضهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين .

وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتًى قد انتصب

على أحد السطوح وصرخَ قائلًا : « إن هذا الرجل مجنون أيها الناس ! » وما رفعتُ نظرى لأراه حتى قبلت الشمس وجهى العارى لأول مرة . لأول مرةٍ قبلت الشمس وجهى العارى فالتهَبتْ نفسى بمحبةِ الشمس ولم أعُدْ بحاجةٍ إلى براقعى . وكأنما أنا فى غيبوبةٍ صرخت قائلا ، « مباركون ، مباركون أولٰئك اللصوص الذين سرقوا براقعى » .

هكذا صرتُ مجنوناً ، ولكننى قد وجدت بجنونى هذا الحرية والنجاة معاً : حرية الانفراد ، والنجاة من أن يُدرِك الناس كيانى ؛ لأن الذين يدركون كيانَنا إنما يستعبدون بعض ما فينا .

ولكن لا أفخرَنَّ كثيراً بنجاتى ، فإن اللص وإن كان فى غيابة السجن فهو فى مأمنٍ من أقرانه اللصوص .

* * *

الله

عندما ارتعشَتْ شفتاى بالنُطق لأول مرةٍ ، صعدتُ إلى الجبلِ المقدس وناديتُ الله قائلًا : « إننى عبدُك يا ربى ؛ مشيئتك الخفيةُ شريعتى ، وسأظلُّ خاضعاً لكَ سحابةَ الحياة » .

فلم يُجبنى الله ، بل مرَّ كعاصفةٍ هوجاءَ واختفى عن ناظرَىَّ .

وبعد ألف سنةٍ صعدتُ ثانيةً إلى الجبلِ المقدسِ وخاطبتُ اللهَ قائلًا : « أنا جبلةُ يَديكَ يا خالقى ، من تراب الأرض صنعتنى وبنفحةٍ من روحكَ العُلويةِ أحييتنى . فأنا مدينٌ لك بكُليتى » .

فلم يُجبنى الله ، وكألفٍ من الأجنحة الخاطفةِ اجتازَ بى عابراً .

وبعد ألفِ سنةٍ صعدتُ إلى الجبل المقدسِ أيضاً وناجيتُ الله ثالثةً قائلًا : « يا أبتاه القدوس ، أنا ابنُك الحبيب . بالرأفة والمحبة ولدتنى ، وبالمحبة والعبادة سأرثُ ملكوتك » .

فلم يجبنى الله فى هذه المرة أيضاً . وكالضباب الذى يغشى قصيَّ التلال توارى عن عينَيَّ .

وبعد ألف سنةٍ صعدتُ إلى الجبلِ المقدسِ وخاطبتُ اللهَ رابعةً قائلًا : « يا إلٰهى الحكيم العليم ، يا كمالى ومحجَّتى . أنا أمسُك وأنت غدى . أنا عروق لك فى ظلمات الأرض وأنت أزاهر لى فى أنوار السماوات ، ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس .

فعطف الله إذ ذاكَ عليَّ ، وانحنى فوقى وهمس في أذنيَّ كلماتٍ تذوب رقةً وحلاوة ، وكما يطوى البحر جدولًا منحدراً إليه طوانى الله فى أعماقه .

وعندما انحدرتُ إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضاً .

* * *

يا صاحبى

يا صاحبى : إننى لستُ على ما يبدو لك منى ، فما مظاهرى سوى رداءٍ دقيقِ الصُنع مَحوكٍ من خيوطِ التساهلِ والحُسنى ، ألتفُّ به ليدرأ عنى تطفلك ويقيك من إهمالى وتغافلى . وأما ذاتى الخفيةُ الكبرى التى أدعوها أنا فسرٌّ غامضٌ مكنونٌ فى أعماقِ سكون نفسى ولا يدركه أحدٌ سواى ؛ وهنالك سيبقى أبداً غامضاً مستتراً .

يا صاحبى : إننى أودّ ألا تُصدقَ ما أقول وألا تثق بما أفعل ، لأن أقوالى ليست سوى صدى لأفكارك ، وأفعالى ليست سوى أشباح آمالك .

يا صاحبي : عندما تقول لي : « الريحُ تهبُّ شرقاً » . أجيبك على الفور قائلًا ، « بلى ، إنها تهبُّ شرقاً » ، لأنني أريد ألّا يخطر لك أن أفكاري السابحة مع أمواج البحر ، لا تستطيع أن تحلق طائرةً على متون الرياح . أما أنت فقد مزقت الأرياح نسيج أفكارك القديمة البالية ، فبتَّ قاصراً عن إدراك أفكاري العميقة المرفرفة فوق البحار . وحسَنٌ أنك لم تدرك كُنْهها ، لأنني أُريدُ أن أمشي على البحر وحدي .

يا صاحبي ! عندما تبزغ شمس نهارك تدنو ظلمة ليلي ، ومع ذلك فإني أحدثك من وراء ستائر ظلمتي عن أشعة الشمس الذهبية التي ترقص عند الظهيرة على قنن الجبال ، وعما تحدثه في رقصها من الأظلال الظليلة المُنسابة إلى الأودية

والحقــول ــ أحــــدثك عن كل ذلك لأنك لا تستطيع أن تسمع أناشيد ظلمتى ، ولا أن ترى خفقان جناحيَّ بين الكواكب والنجوم . وما أحلى أنك لا تسمع ولا ترى ، ذلك لأنى أُوثر أن أُسامرَ الليل وحدى .

يا صاحبى ! عندما تصعد إلى سمائك أهبط إلى جحيمى . ومع أنه تفصلنى عنك هوةٌ لا يستطاع عبورها ، تظل تنادينى قائــلًا : « يا رفيقــى يا صاحبى » فأجيبك : « يارفيقى ، يا صاحبى » لأننى لا أريد أن ترى جحيمى ، فإن لهيبَهُ يُحرق باصرتَيْك ، ودخانَه يسدُّ مِنخرَيْك . أما أنا فإننى أضنُّ بجحيمى أن يزوره من كان على شاكلتك ؛ لأننى أفضل أن أكون فى جحيمى وحدى .

يا صاحبى ! أنت تقول إنك تعشق الحق

والفضيلة والجمال ؛ وأنا أقول مقتدياً بك إنه يليق بالإنسان أن يعشق مثل هذه المناقب ؛ غير أنني أضحك من محبتك في قلبي ساتراً ضحكي عنك ؛ لأنني أُريد أن أضحك وحدى .

يا صاحبي ! إنك رجلٌ فاضلٌ متيقظٌ حكيم ؛ بل إنك رجلٌ كامل . ولذلك فإني ضناً بكرامتك أخاطبك بحكمة وتيقُّظ ــ ولكنني مجنون منجذبٌ عن العالم الذى تقطنه أنت إلى عالم غريب بعيد ، وإنني أستر عنك جنوني لأنني أودُّ أن أكون مجنوناً وحدى .

أنت لست بصاحبي ، يا صاح ! ولكن كيف السبيل لإقناعك فتفقه وتفهم ؟

إن طريقي غير طريقك ، ولكننا نمشي معاً جنباً إلى جنب .

* * *

اللعين(١)

قلتُ مرةً للَّعين : « ألم تسأم نفسك الإقامة فى هذا الحقل وحيداً منفرداً ؟ » .

فأجابنى قائلًا : « إنَّ لى فى التخويف لذةً لا يُسبرَ غورُها ، ولذا فإنى راضٍ عن عملى ولا أملّه » .

ففكرتُ هنيهةً ثم قلتُ له : « بالصواب أجبتَ ، فإنه قد سبق لى فخبرتُ هذه اللذةَ بنفسى » .

---

(١) هو الشاخص الذى ينصب فى هيئة الرجل بين الزرع لطرد الوحوش .

فأجابنى قائلًا : « إنك واهمٌ يا هذا ، فإن هذه اللذة لا يعرف طعمها إلّا من كان محشواً بالقش مثلى » .

فتركته إذ ذاك ، وانصرفتُ وأنا لا أدرى هل مدحنى أم تنقّصنى » .

وانقضى عامٌ صار اللّعين فى أثنائه فيلسوفاً علّامةً . وعندما مررتُ به ثانيةً رأيتُ غرابين يبنيان عشاً تحت قبّعته .

* * *

بين هجعةٍ ويقظة

كان في المدينة حيثما وُلدتُ امرأة وابنـة ، وكانت لهما عادةٌ أن تمشيا وهما نائمتان .

فحـدث في إحـدى ليالـي الصيـف الهادئـة الجميلة ، أن نهضت الأم وابنتها من نومهما على جاري عادتهما ، ومشتا — وهما نائمتان — في حديقتهما المبرقعة بالضباب .

وفيما هما ماشيتان قالت الأم لابنتها : « تبًّا لكِ من عدوٍ شرير ! أنتِ التي هدَّمتْ شبابي وبنَتْ حياتها على أنقـاض حياتي ! آهِ لو أستطيع أن أقتلك ! » .

فأجابت الابنة وقالت : « أيتها المرأة الممقوتة ، والحيزبون الأنانية الرثة ، القائمة بينى وبين ذاتى الطليقة ! يا من تودُّ أن تكون حياتى صدى لحياتها الرثة البالية ! ألا ليتك تهلكين ! ».

وفى تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معاً من نومهما ، وهما بعدُ فى الحديقة ماشيتان .

فقالت الأُم بلطف : « أذاك انتِ يا حمامتى ؟ » . فأجابت الابنة بحلاوة : « نعم أنا ابنتك يا حنونتى ! » .

* * *

الكلب الحكيم

مرَّ كلبٌ حكيم ذات يوم بجماعة من السنانير .

ولما دنا منهم رآهم منصرفين عنه ولم يعبأوا بقدومه . فوقف يتأملهم مستغرباً أمرهم .

وفيما هو يحدق إليهم نهض من بين الجماعة سنور بادنٌ تبدو على وجهه أمائرُ الهيبة والوقار ، فنظر إلى رفقائه وقال لهم : « صلوا أيها الإخوة المؤمنون ، فإني الحق أقول لكم إنكم إذا صليتم وكررتم صلاتكم بحرارة ، يُستجاب تضرُّعكم وتمطركم السماءُ فئراناً في الحال » .

فلما سمع الكلب الحكيم تلك العظة البالغة ،

ضحك منهم فى قلبه وارتد عنهم وهو يردّدُ فى ذاته قائلًا : « ما أغبى هؤلاء السنانير وما أعمى بصائرهم عن إدراك ما فى الكتب ! أليس مكتوباً ، بل ألم أقرأ أنا ، وأجدادى من قبل أخبرونى أن ما تمطره السماء إجابةً للصلوات والتضرعات والابتهالات ليس فئراناً ، بل عظاماً ؟ »

* * *

الناسكان

عاش ناسكان في قنة جبل عالٍ ، وكانا دائبين في عبادة الله وحبهما الواحد للآخر .

وكان لهذين الناسكين قصعة من الخزف لم يكن لهما غيرُها مقتنى .

ففي أحد الأيام وسوس الخناسُ في قلب الناسك الكهل ، فجاءَ إلى رفيقه الشاب وقال لهُ : « لقد مضى على حياتنا معاً زمنٌ طويل ، وقد آن لنا أن نفترق .. ولذا فإنى أريد أن نقسم مقتنياتنا » .

فاكتأب الناسك الشاب وأجابه قائلًا : « إن انفصالك عنى يجرح قلبى ، وحقّك يا أخى .

ولكن إن كان ثمة من ضرورة لذهابك ، فلتكن مشيئتك » .

ثم تناول القصعة الخزفية بيده وقال لهُ : « إن هذه القصعة هى كل ما نقتنى أيها الأخ العزيز ، ولما كانت قسمتها بيننا مستحيلة فأرى أن تكون لك وحدك » .

فأجابه الناسك الكهل وهو يتميز غيظاً قائلًا : « إننى لا أطلب منك صدقة ولا أقبل متاعاً ليس لى ؛ ولذا يجب أن تُقسم القصعة فينال كل منا نصيبهُ منها » .

فقال له الشاب بهدوء : « إذا قسمنا القصعة فأية منفعة ترجى من قسمتها ، سواءٌ لك أم لى ؟ فدعنا إن حسُنَ لديك نقترع عليها » .

فأجابه الكهل وقال : « إننى لا أريد سوى

حصتي كما تقضي العدالة بيننا . ولن أرضى بتةً عن القرعة العمياء ، التي تحط من قدر العدالة وتجعلني مقامراً أُعرِّض العدالة - وحصتي للصدفة — ولذا أُطلب قسمة القصعة » .

فلم يبق إذ ذاك مجال للشاب أن يبحث معه في الموضوع ، فقال له : « إذا كانت هذه حقيقةً رغبتك أيها الأخ الحبيب ووددت أن يكون الأمر على ما وصفت ، فلنقسم القصعة » .

فاسودَّ وجهُ الناسك الكهل وصرخ به قائلًا : « تباً لك ، ما أجبنك وما أقعدك عن الخصام أيها الخامل البليد ! »

* * *

اطلبوا تجدوا

كان فى قديم الزمان إنسانٌ ، وكان له ملءُ وادٍ من الإبَر .

ففى أحد الأيام جاءَت إليه أمُّ يسوع وقالت لهُ :

« يا صاحب ، إن رداءَ ابنى مشقوق ، وأريد أن أرتقه لهُ قبل أن يذهب إلى الهيكل ، أفلا تقرضنى إبرةً ؟ »

فلم يُعطها إبرة . غير أنه أعطاها عظة بالغةً كانت عنده ، موضوعها « اطلبوا تجدوا » ، لكى تأخذها إلى ابنها قبل أن يذهب إلى الهيكل .

* * *

الذوات السبع

في سكون الليل العميق وقد بدأ النعاس يغالبني ، جلست ذواتي السبع يتحادثن .

فقالت الذات الأولى : « لقد مرَّت الأيام والأعوام على وجودي في هذا المجنون ، وليس لي ما أفعله سوى تجديد آلامه نهاراً وأحزانه ليلًا . وقد كرهت نفسي القيام بهذه الوظيفة المملة فلأثورنَّ عليه » .

فأجابتها الذات الثانية قائلة : « إنكِ أوفر مني حظًا يا أختاهُ ، فقد قدّر لي أن أكون شريكةً لهذا المجنون في أفراحه وملذاته ، فأضحك لضحكه

وأترنم في ساعات سروره وبأقدام مثلثة الأجنحة أرقص لأفكاره البرّاقة ؛ فإن تكن ثورة ، فمن أحقُّ بها مني ؟ » .

فقالت الذات الثالثة : « أواه أيتها الرفيقتان ، إن عملي أدعى إلى الثورة من عمليكما . فأنا الذات المريضة حباً ، المتلهبة شوقاً ، الهائمةُ حنيناً ! ألا إن الثورة على هذا المجنون من شأني ، وأنا ذات الشقاء والأسى ! » .

فقالت الرابعة : « إنني أكثر منكن شقاءً أيتها الرفيقات ، فقد قدّر لي أن أُثير كوامن البغض وأوقظ نيران الكره والحقد في قلب هذا المجنون ، فأنا — الذات الثائرة الهوجاء المولودة في كهوف الجحيم السوداء — أحق منكن بالثورة على مهمتي » .

وقالت الذات الخامسة : « إننى أغبطكنَّ جميعاً أيتها الأخوات بما قُدّر لكنَّ من العمل السعيد ، فقد آثر الدهر أن أجدد أحلامَ هذا المجنون التى لا تنتهى ، وأهيج جوعه وعطشه اللذين لا يسكنان ، هائمةً به على وجهى فى فضاء اللانهاية من غير أن أتذوَّق طعم الراحة ، ناشدةً ما لم يُعرف قط وما لم يُخلق بعد ؛ فأنا .. أنا أولى منكنَّ بالثورة والعصيان » .

فقالت الذات السادسة : « ما أسعدكن أيتها الأخوات وما أتعسنى وأشقانى ! فأنا الذات المشتغلة العاملة الحقيرة ، التى بيديها الدائبتين وعينيها الساهرتين ترسمُ من أيامها صوراً ، وتمنح العناصر الدنيئة العادمة الشكل أشكالا جميلة خالدة — ألا إنه أجدر بى أنا الذات المعتزلة

الهادئة أن أنقم وأثور » .

فتطلعت الذات السابعة في كلٍّ منهنَّ وقالت : « أفٍ منكنَّ جميعاً ! ما أغرب ثورتكنَّ على هذا الرجل المسكين بحجة أن لكل منكنَّ عملًا محدوداً . حبذا لو أسعدتني الأيام بعمل محدود كأعمالكنَّ ، فأنا ذاتٌ بطالة لا عمل لها ، أجلس أبداً بين اللانهايتين — الصمت والظلام — في حين أن كل واحدة منكنَّ دائبة في تجديد الحياة على تنوع مظاهرها . بربكن قلْنَ لي أيتها الشقيقات ، من منا أحق بالثورة أنتنَّ أم أنا ؟»

ولما فرغت الذات السابعة من كلامها نظرت إليها الذوات الست بشفقة وحنان ، ولم يحرنَ جواباً .

وجُنَّ الليل فرقدنَ وفي طيات صدورهنَّ

استسلام جديد ، وخضوع سعيد ، كلٌّ لما قُسِمَ لها من الواجب المحدود !

أما الذات السابعة فظلت شاخصة تُراقب اللاشيء ، الذى وراءَ كل شيء .

* * *

الحرب

وكان عرسٌ فى قصر الأمير فى إحدى الليالى ، وكان المدعوون يدخلون ويخرجون . فدخل رجلٌ مع الداخلين وحيَّ الأمير باحترام ووقار . فنظر إليه الجميع بدهشةٍ ، لأن إحدى عينيه مفقورةً والدم ينزف من نُقرتها الفارغة .

فسألهُ الأمير قائلًا : « ما دهاكَ يا صاح ؟ » فأجابه الرجل قائلًا : « أنا لصٌّ أيها الأمير ، وقد اغتنمت فرصة فى ظلمة هذه الليلة على جارى عادتى ، وذهبت لأسرق أموال أحد الصيارفة . وفيما أنا أتسلَّق الجدار لأدخل دكان الصيرفى ،

ضللتُ سبيلي ودخلتُ من نافذة جاره الحائك .
فعدوت طالباً الهرب وأنا لا أبصر شيئاً لشدة
الظلام ، فلطم نولُ الحائك عيني وفقرها . ولذلك
قد أتيتك الآن ملتمساً أن تنصفني من الحائك » .

فأرسل الأمير واستدعى الحائك . فأُحضر
الحائك في الحال . فأمر الأمير أن تقلع
عينُه .

فقال لهُ الحائك : « بالصواب حكمت أيها
الأمير ، فإن العدالة تقضي بقلع عيني . ولكنه غير
خافٍ على سموك أنني أحتاج في حرفتي إلى عينين
لكي أرى حاشيتي الشقة التي أنسجها . غير أن لي
جاراً إسكافاً لهُ عينان مثلي ، ولكنه لا يحتاج في
مهنته إلا إلى عين واحدة . فاستدعِهِ إن أردت واقلع
إحدى عينيه للمحافظة على الشريعة » .

فأرسل الأمير فى الحال واستدعى الإسكاف ،
فحضر واقتلعت عينهُ .
وهكذا تأيدت العدالة !

* * *

الثعلب

خرجَ الثعلبُ من مأواه عند شروق الشمس . فتطلع إلى ظله منذهلًا وقال : « سأتغدَّى اليوم جملًا ! ». ثم مضى فى سبيله يفتش عن الجمال الصباحَ كلهُ . وعند الظهيرة تفرَّسَ فى ظلّه ثانيةً وقال مندهشاً : « بلى ، إن فأرةً واحدة تكفينى » .

* * *

الملك الحكيم

كان في إحدى المدن النائية ملكٌ جبارٌ حكيم ، وكان مخوفاً لجبروته ، محبوباً لحكمته .

وكان في وسط تلك المدينة بئر ماءٍ نقيّ عذب ، يشرب منه جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فما دون ، لأنه لم يكن في المدينة بئر سواه .

وفيما الناس نيامٌ في إحدى الليالي ، جاءَت ساحرة إلى المدينة خلسةً وألقت في البئر سبع نقطٍ من سائل غريب وقالت : « كل من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً » .

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة من ماء البئر ، وجنّوا على نحو ما قالت الساحرة .

ولكن الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء .

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة ، طاف سكانها من حيّ إلى حيّ ومن زقاقٍ إلى زقاقٍ وهم يتسارّون قائلين : « قد جُنَّ ملكنا ووزيره . إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما . إننا نأبى أن يملك علينا مليكٌ مجنونٌ . هيا بنا نخلعه عن عرشه ! » .

وفى ذلك المساء سمع الملك بما جرى ، فأمر على الفور بأن يملأ حق ذهبى (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر . فملأوه فى الحال وأحضروه إليه . فأخذه الملك بيده وأداره إلى فمه . وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره ، فأتى الوزير على ثمالته .

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً ، لأن ملكهم ووزيره ثابا إلى رشدهما .

* * *

الطموح

جلس ثلاثة رجالٍ إلى خوانٍ فى حانة . وكان الأوّل حائكاً والثانى نجاراً والثالث حفار قبور .

فقال الحائك لرفيقيه : « قد بعتُ اليوم كفناً بديعاً من الكتان بدينارين ، فلنشرب ما طاب لنا من الخمر » .

فأجابه النجار وقال : « أما أنا فقد بعتُ أثمن نعشٍ عندى . فلنأكل أفخر اللحوم مع الخمر » .

فقال لهما حفار القبور : « إننى لم أحفر اليوم سوى قبر واحد أيها الصديقان ، ولكن الذى استأجرنى دفع لى الأجر مضاعفاً . فلنستحلِ بقليل

من العسل » .

فحفلت الخمارة بهم فى تلك الليلة ، لأنهم طلبوا الخمر واللحم والعسل غير مرة ، وكانوا قصون طرباً .

أما صاحب الحانة فكان يتلفت بين آونة وأخرى إلى زوجته متبسماً وهو يكاد لا يصدق ما يراه بعينيه . لأن ضيوفه الثلاثة كانوا ينفقون المال من غير حساب .

وظلَّ الأصحاب فى الحانة إلى ساعة متأخرة من الليل يأكلون ويشربون . وبعد أن امتلأوا من كل شيء انصرفوا وهم يغنون ويضجُّون .

وكان صاحب الحانة وزوجته واقفَين بباب حانتهما يشيّعان ضيوفهما بأنظارهما .

فقالت المرأة لزوجها : « حبذا لو يُسعدنا

الحظ فى كل يومٍ بمثل هؤلاء الزبائن الكرماء الشرفاء ، فإننا نتمكن وقتئذ من إعفاء ابننا الوحيد من خدمة هذه الحانة القذرة ، ونستطيع تعليمه ليصير فى المستقبل قسيساً .

* * *

اللذة الجديدة

اخترعتُ في ليلتي الماضية لذةً جديدة .

وبينما كنت أتمتع بها للمرة الأولى ، رأيتُ ملاكاً وشيطاناً قد وقفا ببابي يتخاصمان ويتناقشان على تعريف لذتي .

فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلاً : « إنها خطيئة مميتة ! »

فيعترضه الثاني قائلاً بصوت أشدّ من صوته : « لا لعمري إنها فضيلة ! » .

* * *

اللغة الأخرى

حدث أنه بعد ميلادى بثلاثة أيام كنتُ متكئاً فى مهدى الحريرىّ ، أتفرس بلهفة غريبة فى العالم الجديد حوالىّ .

فقالت أمى للمرضع : « كيف حال ولدى اليوم ؟ » فأجابتها قائلةً : « هو بخير يا سيدتى ، فقد أطعمته ثلاث مرات .. ولم أرَقطُّ قبلَهُ طفلًا بشوشاً مثلهُ » .

فما سمعتُ ذلك حتى ثار ثائر غضبى وصرختُ قائلًا : « لا تصدقى ، لا تصدقى ذلك يا أماه ؛ فإن فراشى خشن الملمس ، والحليب الذى رضعته مرّ المذاق ، ورائحة الثدى كريهة فى أنفى ، فيا

شدَّ ما بى من شقاء ! » .

فلم تفهم أمى لغتى ، وكذلك المرضع لم تفقه ما قلتهُ لأننى خاطبتهما بلغة العالم الذى أتيتُ منه .

وفى اليوم الحادى والعشرين لولادتى ، وهو اليوم الذى تعمدت فيه ، قال الكاهنُ لأمى : « إننى أهنئك يا سيدتى ، لأن ابنك وُلدَ مسيحياً » .

فقلتُ للكاهن مندهشاً : « إذا كان الأمر كما تقول ، فأحر بأمك التى فى السماء أن تكون تعسة بك ، لأنك لم تولَدْ بعدُ مسيحياً » .

فلم يفهم الكاهن ما قلته لَهُ بلغتى .

وبعد سبعة أقمار جاءَنا عرافٌ فتفرس فى وجهى مليًّا وقال لأمى : « إن ابنك هذا سيكون زعيما داهيةً ، وسيتبعه الناس طائعين » .

فصرختُ بأعلى صوتى قائلًا : « تلك نبوءَةٌ

كاذبة ، فأنا أدرى بنفسى وأعلم يقيناً أننى سأدرس الموسيقى والغناء ، ولن أكون إلّا موسيقياً » .

ولشدَّ ما دهشت إذ لم يفهم أحدٌ لغتى ، مع أننى كنتُ قد بلغت ذلك الحدّ من عمرى .

ولقد مَرَّ على ذلك ثلاثٌ وثلاثون سنةً ، وقد ماتت أمى والمرضع والكاهن (ظلل الله أرواحهم برحمته) . أما العراف فلا يزال حياً يُرزق . وقد رأيته فى الأمس أمام الهيكل فحدثته وحدثنى ، وأطلعته على انخراطى فى سلك أبناء الموسيقى فقال لى : « قد طالما وثقْتُ بأنك ستكون موسيقياً كبيراً ، ولقد سبقتُ فى أيام طفولتك فأنبأتُ أمك بمستقبلك هذا » .

فصدقتُ قوله ، لأنى أنا نفسى نسيتُ لغة العالم الذى أتيتُ منه .

* * *

الرمَّانة

عشتُ مرةً فى قلب رمّانة . وبينما أنا جالس يوماً فى خليتى سمعتُ حبةً تقول : « سأصير فى المستقبل شجرة متعالية ، تترنم الأرياح بأغصانها وترقص الشمس على أوراقها ، وسأكون قويةً جميلة على ممرّ الفصول » .

فأجابت حبةٌ ثانية وقالت : « ما أجهلك أيتها الرفيقة ! فإنى حين كنتُ صغيرةً مثلك حلمت أحلامك . ولكننى بعد أن صرتُ قادرةً على تحديد كل شىء بمقياس ومعيار ، أدركت أن جميع آمالى كانت باطلة » .

ثم قالت حبةٌ ثالثة : « أما أنا فإننى لا أرى فينا ما ينبىءُ بمثل هذا المستقبل العظيم » .

فأجابت حبةٌ رابعة وقالت : « إذا لم ترمِ حياتنا إلى مستقبل أنبل وأبهى ، فباطلةٌ هى » .

فوقفت إذ ذاك حبة خامسة وقالت : « ما بالنا نتجادل فيما سيؤول إليه أمرنا فى المستقبل ، فى حين أننا لا نعرف ما نحن عليه اليوم ؟ » .

فقالت حبة سادسة : « إننا سنظل أبداً على ما نحن عليه الآن » .

فأجابتها حبة سابعة قائلة : إن فى ذهنى صورةً واضحة للمستقبل ، ولكننى لا أستطيع أن أرسمها بالألفاظ » .

ثم تكلمت حبة ثامنة وتاسعة وعاشرة وحبوب كثيرة حتى تكلم الجميع ، فلم أفهم شيئاً لوفرة

الأصوات وبلبلتها .

فتركت الرمانة فى ذلك اليوم وأتيت فسكنت فى سفرجلة ، حيث لا يوجد إلا قليل من الحبوب تعيش بصمتٍ وسكون .

* * *

القفصان

كان فى حديقة أبى قفصان .

وكان فى أحدهما أسدٌ أحضره عبيد أبى من براري نينوى ، وفى الثانى زرزورٌ غرّيدٌ لا يملُّ الإنشاد .

وكان الزرزور يأتى فى كل فجرٍ إلى الأسد ، فيحييه قائلًا له : « عم صباحاً يا أخى السجين » .

* * *

النملات الثلاث

اجتمع ثلاث نملات على أنف رجل كان نائماً في الشمس . فحيت كل منهنَّ الأخرى بتحية قبيلتها . ثم وقفنَ هنالك يتحدثنَ .

فقالت النملة الأولى : « إن هذه التلال والسهول التي نحن عليها اليوم ، هي أقفرُ جهة وطئتها في حياتي على الأرض ؛ فقد طفتُ النهار بطوله أفتش عن حبة من أي نوع كان فلم أظفر بشيء » .

فأجابت النملة الثانية وقالت : « طالما سمعتُ أبناءَ قبيلتي يتحدثون عن مكان يطلقون عليه اسم الأرض الملساء الجرداء ، وما أكثر ما لهم في دورانها وحركتها من الآراء . وإنه ليلوح لي أننا نسير

اليوم عليها ، لأننى تجولتُ فى جميع منعرجاتها وعطفاتها وخبرت بنفسى حقيقتها » .

فرفعت النملة الثالثة رأسها وقالت : « أيتها الصديقتان ، نحنُ الآن واقفات على أنف النملة العظمى ـــ النملة الجبارة اللامتناهية ، التى تعاظم جسمها حتى عجزت عن رؤيته عيوننا ، واتسع ظلها حتى قصرت عن استقصائه مقاييسنا ، وارتفع صوتها حتى كلَّت عن سماعه آذاننا . هذه هى النملة الأزلية المالئة الأرجاء بلا نهايتها » .

وعندما فرغت النملة الثالثة من كلامها ، نظرت كلٌ من رفيقتيها إلى الأخرى وضحكتا من حديثها .

وفى تلك اللحظة تحرَّك الرجل فى رقدته ، فرفع يَدهُ وحكَّ أنفه فانسحقت النملات الثلاث تحت أصابعه .

* * *

حفار القبور

بينما كنت يوماً أدفنُ ذاتاً من ذواتي الميتة ، إذ وقف بى حفار القبور وقال لى :

« أنت هو الرجل الفرد الذى وقع بقلبى ، دون جميع الذين يأتون إلى هذه المقبرة » .

فقلت له : « لقد سرَّنى قولك يا صاح ، ولكن لماذا وقعتُ بقلبك دون سواى من الناس ؟ » .

فأجابنى قائلا : « إن سواك يأتى باكياً ويعود باكياً .. أما أنت فإنك تجىء ضاحكاً وترجع ضاحكاً » .

* * *

على درجات الهيكل

رأيتُ فى مساء الأمس امرأة جالسة على درجات الهيكل .

وكان جالساً معها رجلان ، واحدٌ عن يمينها والآخر عن يسارها ينظران إليها .

وقد لاحظت متعجباً أن وجنتها اليُمنى كانت شاحبة ، وأن وجنتها اليُسرى كانت متورّدة .

* * *

المدينة المباركة

خُبّرتُ في حداثتي عن مدينة كان جميع الناس يعيشون فيها وفق تعاليم الكتاب ، فقلت لنفسي : « لأسعيَنَّ إلى تلك المدينة سعياً ، وأحظى بما فيها من البركة العليا » .

وكانت المدينة بعيدة ، فأعددت للسفر كامل العدَّة . وبعد مسير أربعين يوماً أشرفت عليها . وفي اليوم التالي دخلتُها فإذا كلُّ سكانها أعور أقطع . فأخذتني الحيرة وقلت لنفسي : « وهل على كل من يعيش في هذه المدينة المقدسة أن يكون أعور أقطع ؟ » .

ثم لحظت أن القوم كانوا ينظرون إليَّ بدهشة أعظم من دهشتي .. لأنهم هم أيضاً كانوا متعجبين من عينىَّ ويَدىَّ .

وفيما هم يتحدثون سألتهم قائلًا : « هل هذه هى المدينة المقدسة ، حيث يعيش كل إنسان وفق تعاليم الكتاب ؟ » .

فقالوا : « نعم ، هذه هى المدينة » .

فقلت لهم : « وماذا حلَّ بكم ؟ أين عيونكم اليمنى وأيديكم اليمنى ؟ » .

فرثى الشعبُ لحالتى ، وأشفقوا على جهالتى وقالوا لى : « تعال وانظر » .

ثم قادنى واحدٌ من متقدميهم إلى داخل الهيكل القائم فى وسط المدينة .

وعندما دخلت الهيكل رأيتُ فى الصدر رابية

من العيون والأيدى الذابلة ، فقلت لهم والدهش آخذ بى كل مأخذ : « بربكم قولوا لى أىُّ غازٍ سفاحٍ أغار عليكم ، فحكم بقطع أيديكم وقلع عيونكم ؟ » .

فإنَّ الجميعَ بمرارة متعجبين من جهلى ، ودنا منى أحدُ شيوخهم وقال لى : « يا ابنى ، إنما نحن الذين فعلنا ذلك بأنفسنا ، لأن الله سلطنا على الشر الذى كان حالًّا بنا ، فاستأصلنا جرثومتَهُ ؟ » ثم قادنى إلى مذبح عالٍ وجميعُ الشعب يتبعنا ، وهناك أشار بأصبعه إلى آية محفورة فوق المذبح ، وطلب إلىَّ أن أقرأها فقرأت :

« إذا كانت عينك اليمنى تشكِّكُك فاقلعها وألقها عنك ، فخيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم . وإذا شكَّكَتكَ

يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خيرٌ لك أن يهلك أحدُ أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم » .

فأدركتُ إذْ ذاك سرَّهم ، وصرخت بهم قائلًا : « أليس بينكم رجلٌ أو امرأةٌ بعينين أو يدين ؟ »

فأجابوا قائلين : « كلا ! ليس بيننا أحدٌ سوى الصغار الذين لم يبلغوا بعدُ رُشدهم ، ليقرأوا الكتاب ويعملوا بوصاياه » .

وعندما خرجنا من الهيكل أسرعتُ فغادرتُ تلك المدينة المباركة ، لأننى كنت بالغاً رُشدى وقادراً على قراءَة الكتاب .

* * *

الإلٰه الصالح والإلٰه الشرير

اجتمع الإلٰه الصالح مرةً بالإلٰه الشرّير على قنّة جبل . فقال الإلٰه الصالح للشرير : « عِمْ صباحاً يا أخى » .

فلم ينبس الإلٰه الشرّير ببنت شفة ، فقال له الإلٰه الصالح : « يلوح لى أيها الزميل أن مزاجك متعكرٌ اليوم » .

فأجاب الإلٰه الشرير قائلًا : « نعم ، أنا مستاءٌ جداً لأن القوم فى هذه المدة الأخيرة صاروا لا يميزون بينى وبينك ، وكثيراً ما أسمعهم ينادوننى باسمك ، ولا أكْرَهَ على نفسى منك ومن اسمك ! » .

فقال له الإلٰـه الصالح : « إن هذا هو ما يَحدُث لي أيضاً في كل يوم أيها العزيز ، فإن كثيرين من الناس ينادونني باسمك ويحسبونني إياك » .

فمضى الإلٰـه الشرّير في سبيله وهو يُحرِّق الأُرَّم في قلبه ، لاعناً حماقة الإنسان وجهله .

* * *

فى خيبتى غلبتى

يا خيبتى ، يا خيبة ! يا وحدتى وانفـرادى . إنك لأعزُّ لدىَّ من ألف انتصار ، وأحلى على قلبى من كل أمجاد الأقطار .

يا خيبتى ، يا خيبة !

يا معرفتى لنفسى واحتقارى لذاتى ، بلكِ أعرف أننى لا أزال فتياً سريعَ الخطى ، فلا تغُرينى أكاليلُ الغار الذابلة الفانيـة . بلكِ قد حَظـيتُ بوحدتـى وانفرادى ، وتذوَّقتُ لذة فرارى واحتقارى .

يا خيبتى ، يا خيبة !

يا سيفى البتار وترسى البـرَّاق ، قد قرأت فى

عينيكِ :

أن الإنسان متى جلس على عرش الملك فقد صار عبداً ،

ومتى أدرك الناس أعماق روحهِ فقد طُوى كتاب حياته ،

ومتى بَلغَ أوجَ كماله فقد قضى نحبهُ ؛

بل هو كالثمرة إذا نضجت سقَطَتْ واندثرت .

يا خيبتى ، يا خيبة ! يا رفيقى الباسل الودود .

أنتِ وحدك تسمعين إنشادى وصراخى وسكوتى ، وليس غيرك بمحدثى عن خفقان الأجنحة وهدير البحار ، وعن قذائف البراكين الثائرة فى دوامس الليالى .

أنتِ وحدك تتسلقين صخور نفسى الجلمودية الشامخة .

يا خيبتى ، يا خيبة ! يا شجاعتى التى لا تموت .

أنت تضحكين معى فى العاصفة ، وتحفرين معى قبوراً لما يموت منى ومنك ، وتقفين معى أمام وجه الشمس بجلدٍ وثبات ، فنكون معاً هائلين راعبَين .

* * *

الليل والمجنون

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل قاتمٌ عارٍ ، أمشى على طريقٍ نارىٍّ يمتدُّ فوق أحلام نهارى . وحيثما تمسُّ رجلى الأرض فهناك تنبثق سنديانة جبارة » .

الليل : « كلا ، لستَ مثلى أيها المجنون . فإنك مازلت تتلَفَّت إلى ورائك لترى آثار قدميك على الرمال » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل صامتٌ وعميق ؛ وفى قلب وحدتى تتكئ إلاهة تتمخض

بمولود علوى تأتلفُ بكيانه الجنَّةُ والجحيم » .

الليل : « كلا ، لست مثلى أيها المجنـون . فإنك لا تزال ترتعش أمام الآلام ، فيهولك سماعُ أناشيد الهاوية » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، آبِدٌ جبَّار ، فإن أُذُنىَّ مُثقلتـان بنحـيبِ الأمـم المستعبـدة ، والتحسُّرِ على الممالك المهجورة » .

الليل : « كلا ، لستَ مثلى أيها المجنـون ، لأنك لا تزال تتخذُ ذاتك الصغرى رفيقاً وفيًّا ، ولا تستطيـع أن تتخـذ لك من ذاتك الجبَّـــارة صديقاً » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل صارمٌ وفظيع ؛ فإن قلبى لا يطـرب إلا لرؤيـة لهـيب المـراكب

المحترقة في البحار ، وشفتيَّ لا تستلذّان سوى دماء الأبطال المصروعين في ساحات الوغى » .

الليل : « كلا لستَ مثلي أيها المجنون ، لأن شوقك إلى أخت روحك ما برح متسلطاً عليك يُسيّرك كيف شاءَ ، ولم تصرْ بعدُ شريعةً لنفسك » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، جَذِلٌ وطروب ، فإن الرجل الذى يرافقنى سكران أبداً من الخمرة البكر ، والمرأةُ التى تصادقنى ترتكب الإثم وهى منشرحة الصدر » .

الليل : « كلّا لستَ مثلي أيها المجنون . لأن روحك مُقَنَّعة بقناع ذى طياتٍ سبع ، وأنت للآن لم تحمل قلبك على كفك » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، صبورٌ وكئيب ، فإن فى صدرى ألوفاً من قبور المحبين الذين ماتوا مخلصين ، فحنطتهم الدموع وكفنتهم القبلات الذابلة » .

الليل : « وهل أنتَ مثلى ؟ أحقاً أنتَ مثلى أيها المجنون ؟ وهل تستطيع أن تمتطى العاصفة جواداً وتمتشق البرق حُساماً ؟ » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، أنا مثلك قديرٌ عظيم ، وقد بنيتُ عرشى على آكامِ الآلهة الساقطة ، وجعلتُ الأيام تمر أمامى صاغرة ، تقبل أهدابَ ثوبى من غير أن تجرؤَ على التطلع فى وجهى » .

الليل : « هل أنت مثلى يا ابن قلبى الدامس

المدلهم ؟ هل أنت مثلى ؟ وهل تخطر لك أفكارى الجامحة ، أم تتكلم لغتى الواسعة البيان ؟ »

المجنون : « بلى ، إننا شقيقان توأمان أيها الليل ، فأنت تكشف مكنونات اللانهاية ، وأنا أكشف مكنونات نفسى » .

* * *

الوجوه

رأيت وجهاً يظهر بألف مظهر ، ووجهاً مظهره واحدٌ أبداً كأنما قد سبك في قالب .

ورأيتُ وجهاً قدرتُ أن أقرأ تحت طلاوته الظاهرة بشاعتهُ المستترة ، ووجهاً ما رأيتُ روعة جماله المحتجب حتى رفعتُ قناعَهُ الظاهر .

ورأيتُ وجهاً شيخاً قد تجعد ولكن على لا شيء ، ووجهاً ناعماً قد ارتسمت على ملامحه جميع الأشياء .

أنا أعرف الوجوه ، لأنني أنظر إليها من خلال ما ينسجهُ بصرى فأرى الحقيقة التى وراءَها بباصرتى .

* * *

البحر الأعظم

ذهبتُ ونفسي إلى البحر العظيم لنستحم بمائه .

وعندما وصلنا إلى الساحل طفنا نبحث عن مكانٍ مستورٍ عن الأنظار .

وفيما نحن نمشي ، رأينا رجلًا جالساً على صخرةٍ غبراءَ وفي يده كيسٌ يأخذ منه حفنات من الملح ويرمي بها إلى البحر .

فقالت لي نفسي : « هو ذا المتشائمُ الذي لا يَرى من الحياة سوى ظلها . فلنترك هذا المكان لأننا لا نستطيع أن نستحمَّ أمامهُ » .

فتركنا ذلك المكان وسرنا إلى أن بلغنا جَوْناً في

الشاطئ ، فإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصَّعة بالجواهر ، يتناول منها قطعاً من السكَّر ويرمي بها إلى البحر .

فقالت لي نفسي : « هو ذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بِشْرَ فيهِ . فيجب أن لا يرى جسدينا العاريين » .

فتابعنا مسيرنا حتى بلغ بنا إلى شاطئ قريب ، فرأينا رجلًا يلتقط أسماكاً ميّتة ويعيدها إلى الماء بعَطفٍ وحنان .

فقالت نفسي : هو ذا الإنسانيّ الشفيق ، الذي يحاول إرجاع الحياة لمن في القبور . فلنبتعد عنه » .

فعبرنا به وسرنا إلى موضع آخر ، فرأينا رجلًا يخطّط ظلَّه على المياه فتجيء الأمواج وتمحو

خطوطه ، ثم يعود فيخططه مرة بعد مرة .

فقالت لي نفسي : « هذا هو المتَصَوِّفُ الذي يُقيم من أوهامه صنماً يعبده ، فلنتركْهُ » .

فخلَّفناه وراءَنا وسرنا إلى جونٍ صغير في مكان آخر ، فرأينا رجلًا يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في كأس من العقيق .

فقالت لي نفسي : « هو ذا الخياليُّ الذي يَحوك من خيوط العناكب رداءً يلبسه ، وهو لا يستحق أن يرى جسدينا العاريين » .

ثم سرنا قليلًا فسمعنا بغتةً صوتاً يقول : « هذا هو البحر ! هذا هو البحر العميق ! هذا هو البحر الواسع الجبّار ! » فسعينا إلى حيثُ خرجَ الصوت ، فإذا برجلٍ قد ولّى ظهرهُ شطر البحر ووضع على أذنيه صَدَفَةً كالقَرْن ، وقَعَد يُصغي إلى

ما تُرجعُه من الصدى .

فقالت نفسى : « سِرْ بنا فهذا هو الدهرىّ الذى ينصرف عن الكليات التى تتجاوز فهمَـهُ ، إلى الجزئيات التافهة التى لا طائل تحتها » .

فخلفناه وراءَنا وانطلقنا إلى موضع آخر ، فإذا برجل منحنٍ بين الصخور وقد غَمَر رأسَهُ بالرمل ، فقلتُ لنفسى : « هلمى يا نفس لنستحمَّ ههنا ، لأن هذا الرجل لا يستطيع أنْ يبصرنا » .

فهزَّت نفسى رأسها وقالت : « كلا وألف كلا ! فإن هذا الذى تراه هو شرُّ خلقِ الله ، هو الرافضىّ الخبيث الذى يحجبُ نفسهُ عن مأساةِ الحياة ، فتحجبُ الحياة أفراحها عن قلبه » .

فبدَتْ إذ ذاك على وجه نفسى أماراتُ الحزن والأسى ، وبصوت تقطعه المرارة قالت : « هلمّ بنا

ننصرف من هذه الشواطئ ، لأنه ليس فيها مكان خفيٌّ آمنٌ نستحم فيه . فلن أرضى أن تعبث هذه الريحُ بشعرى الذهبى ، ولا أن يكشف هذا الهواءُ عن صدرى الناصع ، ولا أن يُظهر هذا النور عُريى المقدس » .

حينئذٍ تركنا ذلك البَحر ناشدين البحر الأعظم .

* * *

المصلوب

صرختُ بالناس قائلًا : « أودُّ لو تصلبونني »
فقالوا : « ولماذا يكون دمك على رءوسنا ؟ »
فقلتُ لهم : « وكيف تفاخرون بأنفسكم إن لم تصلبوا المجانين ؟ » .

فقبلوا قولى وصلبونى . فهدَّأ الصلبُ ثورة نفسى . وعندما كنت معلّقًا بين الأرض والسماء ، رفعوا رءوسهم وحدَّقوا بى وهم يتمايلون عجباً ، لأن رءوسهم لم ترتفع قبلُ إلى ما فوق أقدامهم .

وفيما هم مجتمعون حول الصليب ، رفع واحدٌ منهم صوته وقال لى : « عن أىّ ذنبٍ تُكَفّرُ

يا هذا ؟ » .

ثم قال آخر : « بربّك قلْ لنا ما الذى دعاك إلى التضحية بنفسك ؟ » .

وتلاهُ ثالث فسألنى قائلًا : « أوَ تظنّ أيها الجاهل أنك تشترى مجد العالم بهذا الثمن البخس الذى تقدمهُ ؟ » .

ثم قال رابع : « تأملوا ابتسامته الخرساء كأن لم يحلَّ به شيء ! وهل فى استطاعة بشر أن يبتسم لمثل هذا الألم ؟ » .

فالتفتُّ إليهم إذ ذاك وقلتُ لهم : « اذكروا ابتسامتى هذه ولا تذكروا شيئاً غيرها . فأنا لا أكفّر عن ذنب ، ولا أسعى إلى تضحية ، ولا أرغب فى مجد ، وليس لى ما أصفح عنه . ولكننى قد عطشتُ فسألتكم دمى شراباً . وهل من

شرابٍ يبردُ غلةَ المجنون سوى دمه ؟ أجَل !
وكنتُ أبكم فسألتكم الجراحَ أفواهاً ، وكنت
سجيناً فى ظلمة أيامكم ولياليكم فالتمستُ سبيلًا
يؤدى بى إلى أيام أبهى من أيامكم وليالٍ أسعد من
لياليكم .

« وها أنا ذا ماضٍ الآن إلى حيث مضى
كثيرون ممن صُلبوا قبلى . ولكن لا يخطُرُ لكم أننا
معاشر المصلوبين نعبأ بصلبكم ، لأننا قد قُدِّر لنا أن
نُصلب من جبابرة أشدّ منكم قدرةً وبطشاً بين
الأرضين الدنيا والسماوات العليا » .

* * *

الفلكي

رأيتُ وصديقاً لي .. أعمى جالساً في ظلال الهيكل وحدَهُ . فقال لي صديقي : « هو ذا أحكم رجل في قومنا » .

فتركتُ إذ ذاك صديقي ودنوتُ من الأعمى فحييته ، وقعدتُ بجانبه أجاذبُهُ أطراف الحديث . وبعد هنيهة سألته قائلاً : « منذُ كم أنت أعمى يا سيدي ؟ » .

فأجابني وقال : « منذ ولادتي يا بُنيّ » .

فقلت لَهُ : « وأيّ مذهب من مذاهب الحكمة تتبع ؟ » .

فأجاب قائلًا : « أنا فلكى منجّم » .

ثم أشار بيده إلى صدره وزاد قائلًا : « إننى أرصد هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه النجوم » .

* * *

الحنينُ الأعظم

ها أنا ذا جالسٌ بين أخى الجبل وأختى البحر ، ونحن الثلاثة واحدٌ فى عزلتنا ، تربطنا محبةٌ عميقةٌ قويةٌ غريبة .

محبةٌ أعمق من أعماق أختى ، وأقوى من قوة أخى ، وأغرب من غرائب جنونى .

وكم هنالك من دهورٍ تقضت قبل أن بدَّدَ الفجرُ الأول دياجيرَ الظلمةِ عنا ، فرأى أحدنا أخاه .

قد شاهدنا ولادة كثير من العوالم ، واكتمالها وانحلالها ؛ بيد أننا أحداثٌ توَّاقون بعدُ .

أجل ، نحن أحداثٌ توّاقون ، ولكننا وحيدون مهملون .

نتكئُ متعانقين عناقاً أبدياً ، ولكننا غير مستريحين . وهل من راحةٍ لشوقٍ مستعبَد وشهوة لا تنفدْ ؟

أين إلٰه النار المتلهّب فيدفئ مضجع أختى ؟

بل أين إلٰهةُ الغيث الفياضة فتخمد براكين أخى ؟

وأنا أشقى الاثنين . من أين لى المرأة التى تتسلط على قلبى ؟

فى سكينة الليل تردّدُ أختى فى أحلامها اسمَ إلٰه النار المجهول لتدفئتها .

وينادى أخى الإلهة الغيث القصية لتبريد غلّته .

أما أنا فمَنْ تُرى أنادى فى غفلتى ؟

لست والله أدرى ! لست والله أدرى !
ها أنا ذا جالسٌ بين أخى الجبل وأختى البحر ،
ونحن الثلاثة .. واحدٌ فى عزلتنا ،
تربطنا محبةٌ عميقةٌ قويةٌ غريبة .

* * *

وُرَيقة عشب وورقة خريف

قالت وريقة عشب لورقة خريف : « إنك تُحدِثين بسقوطك جلبةً فتبعثرين أحلام شتائى » .

فأجابتها الورقة مغتاظةً : « أيتها الدنيئة أصلًا وفصلًا ، الفظَّة المعقودة اللسان . من أين لك الأحلام وأنت ملتصقة بقذارات الغبراء ، بعيدة عن موسيقى الفضاء ، لا تُميِّزين بين الغناء والمُواء ؟ » .

قالت ورقة الخريف ذلك ، وهبطت على الأرض فنامت .

وعندما جاءَ الربيع أفاقت من نومها ، فإذا بها وُريقة عشب .

ثم أقبل الخريف ووافتها هجعة الشتاء ، فنثر الهواء حواليها أوراق الأشجار الذابلة فتململت فى ذاتها قائلة : « أُف من أوراق الخريف الثقيلة . إنها تُحدِثُ بسقوطها جَلَبَةً وضجيجاً فتبَعثر أحلام شتائى ! » .

* * *

العين

قالت العين يوماً لرفيقاتها الحواس : « إننى أرى وراء هذه الأودية جبلًا مبرقعاً بالغيوم ، فما أجمله جبلًا ! » .

فأصغت الأذن هنيهة لحديثها ثم قالت لها : « أين ذلك الجبل الذى تنظرين ؟ إننى لا أسمع صوته » .

ثم قالت اليد : « أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه . فليس هنالك جبل ألبتة » .

وقال لها الانف : « إننى لا أستطيع أن أفهم

كيف يوجد الجبل ، وأنا لا أقدر أن أشمَّهُ . ألا إنَّ وجوده لمستحيل » .

فتحولت العين إلى جهة أخرى ضاحكةً فى ذاتها . أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل هذا الضلال ، وبعد البحث الدقيق قررن بإجماع الآراء « أن العين قد خرجت ولا شك عن صوابها » .

* * *

العالمان

كان في مدينة (أفكار) القديمة عالمان . وكان كلٌّ منهما يمقتُ معرفة الآخر ويحتقرها . وكان الأول كافراً والثاني مؤمناً .

وحدث أنهما اجتمعا مرة في ساحة المدينة ، وطفقا يتجادلان ويتحاجان أمام أنصارهما في وجود الآلهة أو عدم وجودها . وبعد أن حميَ وطيس الجدال بينهما بضع ساعات ، مضى كلٌّ منهما في سبيله .

وفي ذلك المساء بعينه ، ذهب الكافر إلى الهيكل وجثا على ركبتيه أمام المذبح مستغفراً

الآلهة عن جموح ماضيه ، وصار مؤمناً .

وفى الساعة نفسها أخذ المؤمن كتبه المقدسة فحرقها فى ساحة المدينة ، وصار زنديقاً كافراً .

* * *

عندما ولدت كآبتي

عندما وُلدَتْ كآبتي أرضعتها حليب العناية ، وسهرتُ عليها بعين الحب والحنان ،

فنمت كآبتي كما ينمو كل حيّ .. قوية جميلة تفيضُ بهجة وإشراقاً .

فأحببتُ كآبتي وأحبَّتْني كآبتي . وأحببنا معاً العالم المحيط بنا ؛ لأن كآبتي كانت رفيقة القلب عطوفاً فصيَّرت قلبي رقيقاً عطوفاً .

وعندما كنا نتحادث ، أنا وكآبتي ، كنا نتخذُ الأحلام أجنحةً لأيامنا ومناطق للياليناً . لأن كآبتي

كانت فصيحة طلْقَةَ اللسان فصيرتْ لساني فصيحاً طلقاً .

وعندما كنا نغني معاً ، أنا وكآبتي ، كان جيراننا يجلسون إلى نوافذهم مُصغين إلى غنائنا ، لأن غناءَنا كان عميقاً كأعماق البحر ، وغريباً كغرائب الذكرى .

وعندما كنا نمشي ، أنا وكآبتي ، كان الناس يَرنونَ إلينا بعيونٍ تشعُ حباً وإعجاباً ، متحدثين بنا بأرق الألفاظ وأحلاها ؛ غير أن بعضاً منهم كانوا ينظرون إلينا بعيون الحسد ، لأن الكآبة كانت منقبة محمودة ، وأنا كنتُ مُباهياً فخوراً بالكآبة .

ثم ماتت كآبتي كما يموت كل حيّ ، وبقيتُ أنا وحدي مفكراً متأمِّلا .

وها أنا ذا أتكلم الآن فتستثقل أذناي صوتي ،

وأنشدُ فلا يصغى أحدٌ من جيرانى لإنشادى ، وأطوف فى الشوارع فلا يعبأ أحدٌ بى ؛ غير أننى أتعزّى إذْ أسمعُ فى منامى أصواتاً تقول متحسرة : « انظروا ! انظروا ! فهنا يرقدُ الرجل الذى ماتت كآبتُه » .

* * *

وعندما ولدت مسرتى

وعندما وُلدَتْ مسرَّتى حملتُها على ذراعىَّ ، وصعدتُ بها إلى سطح بيتى أنادى قائلا : « تعالوا يا جيرانى ومعارفى ، تعالوا وانظروا ! فقد وُلدت مسرَّتى اليوم ، تعالوا وانظروا فيض مسرَّتى الضاحكة أمام الشمس » .

وشدَّ ما كان دهشى لأنه لم يأتِ أحدٌ من جيرانى ليرى مسرَّتى .

وظللت سبعة أشهر أُعلن مسرَّتى للناس بكرة وأصيلا على سطح بيتى ، ولكن لم يُصغ أحدٌ قطُّ إلى صوتى . فبقيتُ ومسرَّتى وحيدَين مُهمَلين

لا يعبأ أحدٌ بنا .

وما مرَّ على ذلك سنةٌ حتى سئِمَتْ مسرّتـى حياتها فامتقع لونُها واعتلَّتْ ، إذْ لم ينبُض بحبها قلبٌ سوى قلبى ، ولم يقبّل فمها سوى فمى .

فقَضَتْ مسرّتــى فى وحشتهــا ، وأمسيتُ لا أذكرها إلا عندما أذكرُ كآبتى .

وما الذكرى سوى ورقة خريف لا ترتعش فى الهواء هنيهة ، حتى تكفَّنَ بالتراب دهراً .

* * *

العالم الكامل

يا إلٰه النفوس الضائعة أيها الضائع بين الآلهة استمعنى ! ايها القدَرُ الرحيمُ الساهرُ على نفوسنا التائهة المجنونة أصغ إليَّ ! فإنى وأنا ناقصٌ أعيش بين الكاملين من البشر . أنا ، أنا البشرية المشوَّشة ، السديمُ المضطربُ العناصر اتخطُّ بين عوالم تامَّة من شعوب قد كملت شرائعهم ، وتنزَّهت نُظُمُهم ، وتنسَّقَتْ أفكارهم ، وترتبت أحلامهم ، وتسجلت رؤاهم فى الأسفار والدواوين .

ربَّاه ! إن هؤلاء الناس يقيسون فضائلهم بالمقاييس ، ويزنون خطاياهم بالموازين ، ولديهم

سجلات وفهارس لما لا يُحصى من التوافه والنقائص التى ليست بالخطايا فتُعرف ، ولا بالفضائل فتُنصف .

ويقسمون أيامهم ولياليهم إلى أقسام مقنَّنة مرتبة ، فيفعلون كل شىء فى حينه على وفق ما يخطر لهم . فالأكل والشربُ والنومُ وكساءُ العُرية ثم السآمة والضجرُ ــ كلٌّ فى حينه .

والعملُ واللعبُ والغناءُ والرقصُ ثم الاستراحة عندما تحينُ ساعتها .

الافتكار فى هذا والشعور بذاك ، ثم العدول عن الافتكار والشعور عندما يشرق نجم الأمل السعيد فوق الأفق البعيد .

سلبُ الجار بثغرٍ باسم ، ومنح العطايا بيد تتوقع الثناء والشكر ، ثم المديحُ بفطنة ، والملامة بتروٍّ ،

وقتل النفس بكلمة ، وإحراق الجسد بقبلة ، وغسل اليدين عند المساء كأن لم يكن هنالك من شيء .

المحبةُ بتقليد مطروق ، والتسليةُ على منوال مسبوق ، وعبادة الآلهة كما يحقُّ ويليق ، والاحتيال على الشياطين ، والمكر بالماكرين ـــ ثم نسيانُ كل ما جرى وصار ، كأن الذاكرة حلم من أحلام الأغرار .

التصوُّر لغاية ، والتأمل بعناية ، والمسرَّة بدراية ، والتألم بوقاية ، ثم إفراغ كأس الآمال رجاءَ أن تملأها الأيام فى المآل .

رباه ، رباه ! إن جميع هذه يسبقُ الفكر فيحبلُ بها ، والعزيمةُ فتلدها ، والدقة فتربيها ، والنظام فيسودُها ، والعقل فيديرها ـــ ثم تُنحَرُ وتُلحَدُ فى

زوايا سكينة النفوس ، فتبقى قبورها الموسومة بالعلامات والأرقام ، عظة لنا ولجميع الأنام .

أجل ، هذا هو العالم الكامل الذى قد بلغ أوجَهُ ، عالمُ الغرائب والمعجزات .. بل هو أنضج ثمرة فى جنان الله وأسمى عالم بين عوالمه . ولكن لِمَ أنا ههنا يا رب ؟ لِمَ أنا ههنا وأنا ثمرةٌ عجراء لم تنل بعد شهوتها من النماء ، وعاصفة صماء هوجاء لا شرقاً تبتغى ولا غرباً ، وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق ثائر ؟

لِمَ أنا ههنا ؟ لِمَ أنا ههنا ؟ يا إلـٰه النفوس الضائعة ، أيها الضائع بين الآلهة ؟

* * *

« انتهى المجنون »

AL - ARAB BOOKSHOP

28, FAGGALAH St. - Tel. 908025

CAIRO - EGYPT

A. R. E.

Dear Librarian,

Our firm, al-Arab Bookshop, in Cairo has taken the initiative-Since the end of the 19th century, in furnishing universities, scholars and booksellers with the production of books, serials and manuscripts .

It is noteworthy that the founder, the late Cheikh Youssef T. Boustany is considered among the pioneers in Egypt who did exert an enormous effort in building good relations with most of the famous Orientalists and Arabists all over the world .

Today, al-Arab Bookshop has been selected-since 1961-to furnish The Library of Congress PL 480 with monographs, serials and out of print works from the Arab World .

Yours Faithfully,
Saladin Boustany ,
The Manager

رقم الإيداع ١٩١١ ــ ٨٥
الترقيم الدولى × ــ ٠١٣٤ ــ ١١ ــ ٩٧٧

